

كلمة العدد

الدور السابع، الجزء الرئيسي والإطلالة على المحقّق

بقلم سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

سوف يطالع القارئ على صفحات هذا العدد عدداً كبيراً من الأبحاث بقلم باحثين روس فيما يعتبر ظاهرة جديدة لم يشهدها البحث التاريخي العربي من قبل . . هذه الظاهرة جاءت بعد سقوط الستار الحديدي وتفكك الاتحاد السوفييتي وهي في الوقت الذي تكشف فيه عن عدد من الوثائق من أرشيفات سان بطرس برج السابق إلا أنها تقدم للباحث في التاريخ مادة خصبة للغاية تحدد كيف كانت القيادة الروسية تفكر تجاه الشرق الأوسط والخليج كما تقدم للذين احتاروا طويلاً أجوبة لأسئلة كانت ملحة حول مواقف الاتحاد السوفييتي السابق من بعض قضايا المنطقة .

هذا الاتجاه الجديد يفتح آفاقاً عريضة أمام الباحثين للإطلال على أرشيفات كانت من قبل في عداد المجهول وذلك ليقدموا لنا الوجه الآخر للصورة . فقد كان الاتحاد السوفييتي قوة عظمى لما يقارب القرن وكانت له مواقف واضحة أحياناً ومحيرة في أغلب الأحيان وكان قطباً موجوداً أثناء

الصراعات التي شهدتها المنطقة بين القوى المحلية والقوى الأجنبية . . وكان الاتحاد السوفييتي سواء في العهد الإمبراطوري أو العهد الثوري يحلم بموطئ قدم في المنطقة كما كان يحلم بالوصول إلى المياه الدافئة . . فكيف كانت سياسته لتحقيق ذلك، ولماذا تردد في مواجهة بريطانيا وغيرها . . وكيف فشل بعد اعتناقه النظرية الماركسية في أن يوفق بينها وبين الأساس الديني العميق الذي يعتبر من المسلمات بين شعوب المنطقة .

إن العدد القليل من الوثائق التي اعتمدت عليها الأبحاث المطروحة في هذا العدد يقدم أشياء تدعو للدهشة . . فهي تكشف لنا عن اهتمام كبير منذ أيام روسيا القيصرية بالمنطقة، كما تكشف عن كثير من المحاولات لجمع بعض المعلومات عن شعوب الخليج والجزيرة العربية، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أن بعض الموفدين الروس الذين حاولوا ذلك لم يستطيعوا أن يصلوا إلى ما وصل إليه المبشرون والمستشرقون الإنجليز . حقيقة سقط بعض الموفدين الإنجليز في بعض الأخطاء . . ولكن الأخطاء التي وقع فيها الموفدون الروس كانت أفدح .

وعلى الرغم مما أشارت إليه بعض الوثائق من أن بعض السفن الروسية التي زارت المنطقة قد قوبلت بترحاب على كل المستويات، إلا أن الروس لم يحاولوا الاستفادة من ذلك واكتفوا بالنظر إلى المنطقة من بعيد وبثلاث أو أربع سفن ضمن خط تجاري بين البحر الأسود وبعض موانئ المنطقة في وقت كان يمكن فيه أن تتسع هذه العلاقة وأن تحظى المنتجات الروسية بسوق أوسع وأعرض . . بعض الوثائق تشير إلى ما يقوم في المنطقة من تمسك شديد بالعقائد والتقاليد، بل إن بعض الوثائق يشيد بهذه التقاليد ويعرب عن الإعجاب بها وهذا يطرح سؤالاً هو لماذا أصر الاتحاد السوفييتي السابق على أن تتخذ سياسة الكومنترن موقفاً مادياً صلباً مع أن الكومنترن أصلاً كان يتعامل مع شعوب خارج نطاق الاتحاد السوفييتي ؟ ولماذا فضل الاتحاد السوفييتي الاعتماد على بعض العناصر المسييسة من الشباب لمحاولة نشر الفكر الشيوعي بدل أن يعلن سياسة واضحة صريحة تتفادى الصدام مع مشاعر شعوب المنطقة وهو الأمر الذي استغلته القوى الاستعمارية استغلالاً جيداً للإطاحة بأي تواجد روسي في المنطقة .

يقولون أن السياسة لا قلب لها ولا ضمير . . ولكن السياسة الروسية كما يظهر فيما كشف عنه من بعض الوثائق رغم أنها تعتمد على الفكر المادي الماركسي . . إلا أنها مارست العبث بمشاعر الفقر والعدالة . . وهي أمور كانت أبعد ما تكون عن فكرها ونظريتها، وذلك في محاولة لاستقطاب مشاعر بعض الشباب . . وكانت النتيجة هي الفشل الذريع بعد تفكك الاتحاد السوفييتي . أصبحت هناك اليوم دول الحزام الجنوبي وهي دول مشاعرها الإسلامية عميقة للغاية كما أنها تسعى للتقرب من العالم العربي ودعم الروابط التي تربط بينها وبينه .

والأرشيقات الروسية تحتاج اليوم من الباحثين إلى إطلالة أكبر وأشمل وأعرض لمحاولة الكشف عن مسارات تفكير السياسة الروسية . . وهي بالطبع شكلت بعض الأفكار لدى المواطنين في روسيا وفي الجمهوريات الجديدة حتى يمكن تصحيح بعض الأغلط، وهي لاشك كثيرة كما قلت، نتيجة تردد المبعوثين الروس في التغلغل إلى أعماق مجتمع البادية .

أعلم أن المهمة شاقة، فليس من السهولة فتح كل الأبواب مرة واحدة وقد ظلت مغلقة سنين طويلة . . ولكن هناك الآن محاولة لفتح هذه الأبواب . . وهناك أعداد متزايدة من الأساتذة الروس، سواء في الأرشيقات أو في جامعة موسكو، لديهم الرغبة الأكيدة في التعاون مع الباحثين العرب للإفادة والاستفادة . . وهي فرصة لتجاوز عائق اللغة الذي قد يواجه بعض الباحثين .

نحن لا ندعي أن ما قدمناه في هذا العدد هو نهاية المطاف . . لكنه بداية . . وهو - في اعتقادي - بداية جيدة تفتح الباب لمزيد من الاهتمام بهذه الأرشيقات والتنقيب فيها عما يتعلق بالمنطقة . . وخاصة في العصر الذي تعرضت فيه لضغوط القوى الأجنبية وللعديد من الصراعات التي شكلت الخريطة السياسية بها .

والله ولي التوفيق .

عبد الله بن خالد آل خليفة